رحيل

عبد الكريم رافق تاريخٌ روته سجلّات المحاكم الشرعية

إعادة اكتشاف سورية خلال الحُكم العثماني

تبنّى المُؤرّخ السوري الأميركي، الذي غادر عالمنا الأحد الماضي، مقاربة جديدة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والعمراني لبلاد الشام خلال الفترة العثمانية، بالاعتماد على سجلّات المحاكم الشرعية في سورية ولبنان والأردن وفلسطين

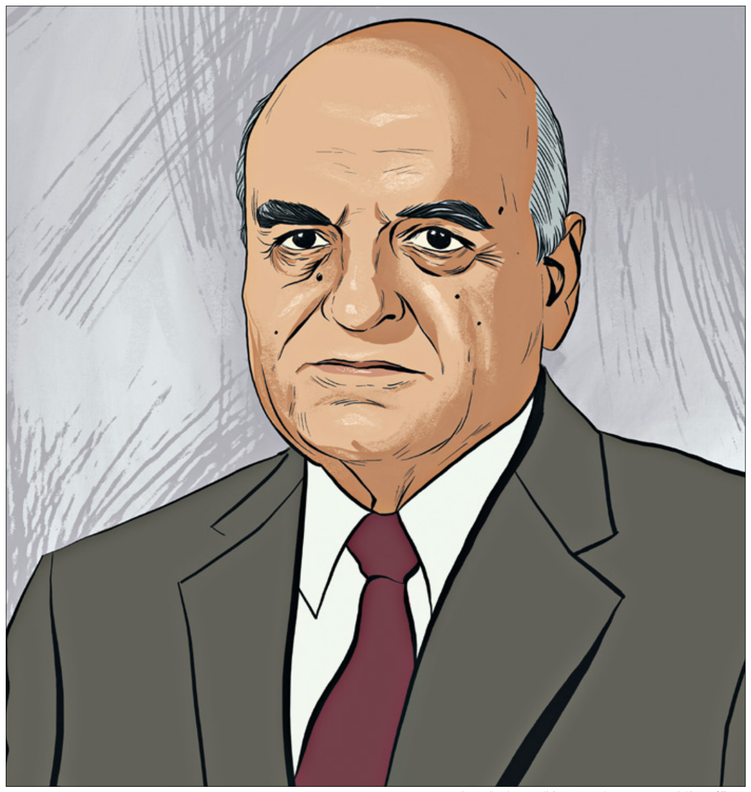

عبد الكريم رافق (1931 - 2024) في بورتريه لـ أنس عوض (العربي الجديد)

محمد. م الأرناؤوط

من الشام إلى مصر

من أبرز الكتب والدراسات التي تركها المؤرّخ الراحل: «العرب والعثمانيون 1516 - 1916»، و«بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام»، و«بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت»، و«بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام»، و«المشرق العربي في العهد العثماني»، و«جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة 1857 - 1917م»، و«تاريخ الجامعة السورية: البداية والنموّ».

في صمتٍ، غادرنا المؤرّخ السوري الأميركي عبد الكريم رافق، الأحد الماضي، إثر حادث أليم، بعد مسيرة أكاديمية طويلة ما بين سورية والأردن ولبنان والولايات المتّحدة، جعلت منه مرجعاً لعدّة أجيال أسهمت في إعادة اكتشاف سورية خلال الحكم العثماني. وقد كان لي شرف التعلّم على يديه خلال العام الجامعي 1973 - 1974 في «جامعة دمشق»، والذي اعتمد لنا فيه كتابه الجديد حينها «العرب والعثمانيون 1516 - 1918» الذي كان يصدر في ملازم على مدى ذلك العام حتى اكتماله في 1974، والسير في مقاربته للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لسورية خلال الحُكم العثماني بالاستناد إلى سجلّات المحاكم الشرعية، وشرف مزاملته حين جاء إلى الأردن بعد تقاعده سنة 2000 في عدّة زيارات للمشاركة في مناقشات الماجستير والدكتوراه والندوات العلمية.

وُلد عبد الكريم رافق عام 1931 في مدينة إدلب شمالي سورية، التي تُعتبر متحفاً مفتوحاً لتاريخ سورية القديم، والتحق بالمدرسة الإنكليزية في إدلب عام 1937 إلى 1947، ثمّ تابع دراسته الثانوية في الكلّية الأميركية بحلب خلال 1947 - 1951. ومع تخرّجه، التحق بقسم التاريخ الذي افتتح حديثاً في «جامعة دمشق» (1951 - 1955)، وعمل مدرّساً فيه خلال 1956 – 1958، إلى أن حصل بعدها على بعثة للماجستير والدكتوراه في «كلّية الدراسات الشرقية والأفريقية» بجامعة لندن. كانت سنوات الدراسة في لندن (1958 - 1963) نقلةً نوعية في مساره لناحية البحث والمنهج مع وجود كوكبة من المؤرّخين مثل إيريك هوبزباوم وبرنارد لويس، وبيتر هولت الذي أشرف على رسالته للدكتوراه «ولاية دمشق 1723 - 1783»، والتي أصبحت الأساس لمقاربته الجديدة للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي والعمراني لسورية خلال الحكم العثماني بالاعتماد على مصادر محلّية مثل سجلّات المحاكم الشرعية وغيرها.

وكان قد سبقه إلى ذلك المؤرّخ الأردني عبد الكريم غرايبة (1923 - 2014) الذي ناقش رسالته للدكتوراه «التجّار الإنكليز في سورية في القرن الثامن عشر 1744 - 1791» عام 1951، والتي اعتمد فيها على سجلّات المحاكم الشرعية وانضمّ في 1953 إلى قسم التاريخ في «جامعة دمشق»، كما لحقه أيضاً في القسم المؤرّخ الأردني محمد عدنان البخيت (1941) الذي اعتمد على سجلّات المحكمة الشرعية في رسالته للدكتوراه «ولاية دمشق العثمانية في القرن السادس عشر» (1972).

عاد رافق إلى دمشق مع المؤرّخ الأميركي جون ماندفيل (1938 - 2019) - الذي كان قد حصل على الماجستير في التاريخ الإسلامي عام 1961 من «جامعة إدنبرة» البريطانية - ونشر عام 1966 دراسته الرائدة «سجلّات المحاكم العثمانية في سوريا والأردن»، ليبدأ بذلك انعطافة جديدة في أبحاثه اللاحقة التي ميّزته على المستوى السوري والعربي والغربي

تخلّصت دراساته من المقاربات الاستشراقية والأيديولوجية

نشر دراستَين رائدتين عن تاريخ غزّة خلال الفترة العثمانية

بعد كتابه «العرب والعثمانيون» ومع هذه الانعطافة الجديدة التي أثمرت مقاربة جديدة للتاريخ المحلّي خلال الحُكم العثماني تعتمد على منجم من المعطيات (سجلّات المحاكم الشرعية)، تخلّصت الدراسات من المقاربات الاستشراقية والأيديولوجية المسبقة، وبدأت تبنّي تاريخها بالاعتماد على تحليل التركيبة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في سورية خلال الحُكم العثماني، بالاعتماد على سجلّات المحاكم الشرعية التي تغطّي سورية ولبنان والأردن وفلسطين.

غزّة وفلسطين

تجلّى تلك الانعطافة في عناوين الدراسات التي نشرها عبد الكريم رافق في مجلّة «دراسات تاريخية» خلال ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته، وهي الفترة التي أصبحت فيها هذه المجلّة بوصلة للمقاربة الجديدة لتاريخ بلاد الشام خلال الحكم العثماني. ففي عام 1980، نشر فيها دراسته «مظاهر من الحياة العسكرية في بلاد الشام من القرن السادس عشر» وفي 1981 نشر فيها «مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني» و«قافلة الحجّ الشامي وأهميتها في العهد العثماني»، والتي أصبحت دراسة مرجعية للباحثين العرب والغربيّين بعد صدورها بالإنكليزية.

وفي 1982، نشر رافق دراستَين رائدتين عن غزّة بعنوان «جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزّة»، وقد نُشرتا معاً عام 1982 في كتاب بعنوان «غزّة: دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية 1273 - 1277 هـ/ 1857 - 1861». وخلال 1984، نشر أيضاً دراستين: «مظاهر سكّانية من دمشق في العهد العثماني» و«الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوربي في القرن التاسع عشر»، بينما نشر في 1987 دراسة بعنوان «البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلّة باب المصلى (الميدان) بدمشق»، أصبحت نواة لرسالة دكتوراه للمؤرّخة الفرنسية بريجيت مارينو «حي الميدان في العصر العثماني»، التي صدرت ترجمتها العربية بتوقيع ماهر الشريف عام 2000. وفي العام نفسه (1987) صدرت دراسته الموسّعة «فلسطين في عهد العثمانيّين: من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن التاسع عشر» في القسم الخاص من «الموسوعة الفلسطينية»، وهي الدراسة التي تستحقّ أن تُنشر ثانية مع دراستيه الرائدتين عن غزّة.

عندما كانت الجامعة السورية مستقلة

شارك عبد الكريم رافق مع زملائه المؤرّخين السوريّين، أمثال نبيه العاقل ومحمد خير فارس وغيرهما، في دعم قسم التاريخ الجديد في الجامعة الأردنية خلال 1969 - 1971، كما درّس في الجامعة اللبنانية بين سنتَي 1973 و1979، وفي عدّة جامعات أميركية: بنسلفانيا (1877 - 1978) وشيكاغو (1981 - 1983) وكاليفورنيا (1984) وغيرها، بينما شغل رئاسة القسم لفترتين (1976 - 1977) و(1988 - 1990) كانتا حافلتين بالأحداث غير الأكاديمية. بعد تقاعده عام 2004 وانتقاله إلى العمل في «جامعة وليم وماري» الأميركية، بقي عبد الكريم رافق وفيّاً لجامعته التي درّس ودرّس فيها، فأصدر عام 2004 كتابه المرجعي «الجامعة السورية: البداية والنموّ 1901 - 1946»، والذي كشف فيه لأوّل مرّة عن كثير من المعطيات التي استمدّها من الأرشيف الفرنسي وغيره. ومع أنّه أُخذ عليه توقّفه عند عام 1946، لكنه في نهاية الكتاب يسجّل جملة لها دلالتها، ورد فيها تعيين الدكتور حسني سبح رئيساً للجامعة بعد عدّة رؤساء جاؤوا بمعايير سياسية، ليقول: «وعادت بذلك إلى الجامعة استقلاليتها وإلى الدكتور حسني سبح الاعتراف بسلامة موقفه في المحافظة على كرامة الجامعة وأساتذتها واستقلالها» (ص 312).

أمّا ما حدث بعد ذلك، فيرويه العماد مصطفى طلّاس في مذكّراته «مرآة حياتي» عن الفترة التي كان فيها عبد الكريم رافق يُدرّس في قسم التاريخ خلال سبعينيات القرن الماضي؛ فقد سجّل في القسم الضابط رفعت الأسد الذي كان يأتي يوم الامتحان بمفرزة من الحرس ليتحلّقوا حوله لكي يجيب براحته عن الأسئلة، فلما نُقل ذلك إلى رئيس القسم محمد خير فارس اتّصل بوزير الدفاع مصطفى طلاس الذي قال له: «لا تفعل شيئاً، لأنّه لن يعمل لديكم أستاذ تاريخ» (ص 29). ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الجوّ على التدريس وانتقاء الجيل الجديد من المدرّسين.

في أحد لقاءاتنا في الأردن، التي حضر فيها عدّة مناقشات لرسائل ماجستير ودكتوراه وندوات، كان يُعبّر عن هذا الوضع المتراكم كما يلي: «لا أصدّق أنّ هؤلاء الأردنيّين الذين علّمناهم وصلوا إلى ما هُم فيه!». رحل عبد الكريم رافق الأحد الماضي، ونُرافق روحَه الآن (يُدفن اليوم الأربعاء في ولاية بوسطن) مشاعرُ زملائه وطلّابه، التي تدعو له بالرحمة والسلام وتتذكّره قامةً سورية كبيرة فرضت احترامها بتواضعه وعلمه الغزير ومحبّته للجميع.

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

إطلالة

أفكّر بأولئك المحاصَرين في غزّة

خوفٌ من الأماكن المغلقة

يُصبح شعوري بالعزلة ساخجاً وأنا أرى أولئك الذين يعيشون محاصَرين في غزّة، حقّاً، ذلك هو الشعور الكامل بالحصار في مكان مغلَق

يولاندا سوليز اونيس

مَن منّا لم يُسائل، في مرحلة ما من حياته، عمّ إذا كان يشعر بنوع من الخوف من الأماكن المُغلقة؟ على مدى خمسة وثلاثين عاماً أمضيتها في جزر الكناري، لم أشعر مرّة واحدة بأيّ شيء مماثل لما يسمّى «مرض الجزيرة»، الذي يتخيّله أولئك الذين يعتبرون أنّ الجُزر «مساحات مغلقة». بلى، عليّ أن أعترف أنّني طوّرتُ الحاجة إلى تأمّل الأفق عبر تسلّق القمم، وإمعان النظر في الوديان من الأعالي، والتلذّذ بالمدن والشواطئ وملامح الجُزر الأخرى. واستكمالاً لهذه العادة، أدركتُ في منطقة الأمازون الفنزويلية، وأنا مضطربة بعض الشيء، الحقيقةَ العظيمة للقول الشائع: «من كثرة الأشجار قد لا أرى الغابة».

لكنّه اضطرابٌ ما لبث أن تناثر بمجرّد أن أُتيحت لي فرصة الصعود، مشياً على الأقدام بطبيعة الحال، إلى جبل سيرّو بيريكو في فنزويلا، وتأمّل الغابة التي تحتضن مدينة بويرتو أياكوتشو، وتعرّجات نهر أورينوكو تحت قدميّ. غير أنّ من يتحدّثون عن الصعود إلى القمّة يريدون الصعود إلى التوأس القديم لـ«مركز التجارة العالمي» في نيويورك، أو توأس «فندق أدامار» في إسطنبول.

ثم بعد هذا كلّه، يتعوّد المرء على المسافات، وتتحوّل مسافة السبعة وعشرين كيلومتراً التي تفصل بويرتو ديل كارمن عن شاطئ فامارا في جزيرة لانزاروتي الإسبانية إلى نزهة قصيرة. ربّما لهذا السبب، أتذكّر برعب تلك الرحلة إلى تشيلي، حيث قرّرت صديقتي الشاعرة روزاليتي مونيوز السفر إلى منطقة تشيلوي في تشيلي كي تقابلني هناك، ثم نعود سوياً إلى سانتياغو على متن حافلة، ونقطع مسافة 1125 كيلومتراً. «غالباً ما تُعدّل الأنواعُ الحيوية في الجُزر ظروفها لتتكيّف مع كل جزيرة. إنّه جزء من متلازمة العزلة». اتذكّر أنّني كتبتُ هذه الجملة التي قالها جان فوستر في سبعينيات القرن المنصرم. حتى أنّني حاولت الاستفادة منها شعرياً، ذلك أنّ فكرة فوستر تنطبق على علم الحفريات وتؤثّر، اعتماداً على الظروف وملايين السنين، على السحالي العملاقة في جزيرة إل هيرو، التابعة لجزر الكناري، كذلك الأفيال القزمة في قبرص.

هذا الشعور بالعزلة، الذي لم يسبق لي أن أحسست به قطّ في جزر الكناري، تجسّد في شكل شعور بتنميل في جسدي عند وصولي إلى لبنان عام 2019: ميناء بلا حركة ركّاب - حتى قبل الانفجار المروّع في الرابع من آب/ أغسطس 2020 - وحدود مع سورية يتطلّب عبورُها الحصول على تأشيرة، وتحذير من وزارة الخارجية الإسبانية بتجنّب السفر مهما كان الظرف. ومن جهة ثانية، حدودٌ مغلقة تاريخياً، تحت حراسة «بعثة حفظ السلام» التابعة للأمم المتّحدة، وخط أزرق لا تتوقّف «إسرائيل» عن تجاهله، لكنّه يمتدّ على الجانب اللبناني فقط. أمّا المطار المجاور لضواحي بيروت الجنوبية، فهو الطريق الوحيد للخروج.

لن يتأخّر شعور الحصار بملامستي، ولم يكن في جزيرة، بل تحديداً في الثالث عشر من نيسان/ إبريل الماضي، حينما أغلق الأردنيون مجالهم الجوّي، وكذلك فعلت سورية ولبنان. حصل ذلك نتيجة تحذير إيران بضربة ستوجّهها لـ«إسرائيل» ردّاً على تفجير قنصليّتها في دمشق. وسرعان ما وصلت أخبارٌ تعطّل المطار وخروجه عن العمل، ليس بسبب الرحلات الملغاة فحسب، بل بسبب أولئك الذين أرادوا مغادرة البلاد بأسرع وقت. وبسرعةٍ مرّت في رأسي ذكريات أشهر القيود الصارمة على الكهرباء، وطوابير البنزين، ونقص الطحين. وبين هذا وذاك جملة «كانّنا في حرب» التي كان اللبنانيون يقولونها فيما ينظّمون أنفسهم، باستثناء المصارف التي كانت تعمل بشكل جيّد!

أعيد فتح المجال الجوّي في المنطقة بعد ساعاتٍ قليلة، وعاد كلّ شيء إلى ذلك التوازن اللبناني إلى حدّ الفوضى. كلّ شيء، باستثناء خطّة انتقالي الوشيك من بيروت إلى عمّان. كان الطريقُ البريّ الخيار الأوّل والأكثر منطقيّة، وهو عبور سورية خلف الشاحنات التي ستُقلّ أثاث منزلي، مع وضع قطعي في الجزء الخلفي من السيارة، لكنّه خيارٌ غير متاح نظراً للظروف الأمنيّة في البلاد والهجمات الأميركية في شباط/ فبراير الماضي. أمّا خيار الشحن انطلاقاً من مرفأ بيروت الفوضوي، عبر قناة السويس إلى العقبة فلم يكن يُنصح به بسبب حالة الحرب في البحر الأحمر. ولم يبقَ سوى خيار النقل الجوّي غير الفعّال لنقل أثاث المنزل كاملاً.

يا لها من سذاجة! يا لها من حماقة! أقول لنفسي، وأنا أرى أولئك الذين يعيشون محاصَرين في غزّة، في ما يشبه حصار القرون الوسطى، تقوم به مسيّراتٌ لا تحترم حتى المستشفيات وتمارس الإبادة. حقّاً، ذلك هو الشعور الكامل بالحصار في مكان مغلَق!

(كاتبة وشاعرة إسبانية)

تجسّدت العزلة في شكل شعور بتنميل في جسدي عند وصولي إلى لبنان

أطفال فلسطينيون في أنقاض منزلهم الذي دمّرته الغارات الإسرائيلية على مدينة غزّة، 9 حزيران/ يونيو 2024 (Getty)

إضاءة

متحف صون تراث السودان تدوينٌ عبر سيَر النساء

حتى لا تغيب الثقافة في أتون الحرب

يسعى الموقع الإلكتروني، الذي أُطلق مؤخّراً، إلى توثيق التراث الثقافي السوداني باللغتين العربية والإنكليزية ومشاركته مع العالم

أنس الأسعد

تحمل الصور الأخيرة التي تصلنا من السودان الكثير من الرُّعب والأسى على حال بلاد النيلين هذه الأيام، وآخرُها المجزرة البشعة التي ارتكبتها مليشيا «الدعم السريع» بتاريخ الرابع من حزيران/ يونيو الجاري، في قرية ودّ النورة بولاية الجزيرة، جنوبي الخرطوم، وراح ضحيّتها أكثر من مئتي مدنيّ. وما زالت الحرب الدائرة في البلاد، منذ تمرّد هذه المليشيا في الخامس عشر من نيسان/ إبريل 2023، تودي بأرواح الآلاف من الضحايا، إضافةً إلى تهجير أكثر من ثمانية ملايين سوداني، في أكبر موجة نزوح يشهدها العالم اليوم.

صحيح أنّ هذا النوع من الحروب يُحطّم عادةً كلّ حوامل العمل الثقافي، لكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض هذا النشاط ما زال يجد متنفّسات له شرقي البلاد، وبالأخصّ في مدينة بورتسودان الآمنة نسبيّاً، وكذلك بعض المبادرات التوثيقية التي يقوم عليها ناشطون يُقيمون خارج السودان، ويسعون من خلالها لإنقاذ ما يُمكن إنقاذه من تراث وثقافة البلاد.

«متحف صون تراث السودان الحي»، عنوان المدوّنة المتحفيّة التي أُطلقت مؤخّراً عبر موقع إلكتروني (www.sslh.info)، في محاولة من القائمين عليها لمشاركة هذا التراث باللغتين العربية والإنكليزية مع العالم، في وقت يجري فيه تغييب السودان وحصره في صورة الحروب والتهجير القسري. ويتكوّن الموقع من عدّة «غُرَف» أرشيفية، وأوّلها عن «النساء» (لا تزال الغُرف الأخرى غير مُتاحة)، حيث يُوثّق هذا القسم، عبر ستّة عشر مقالاً، إسهامات المرأة السودانية في الكتابة الأدبية، والفنون على مختلف أنواعها، والتعليم والتربية، والطبّ والقانون، بالإضافة إلى الأدوار الاجتماعية العديدة التي تحضر النساء فيها، مقترحاً أسماء من أقاليم وجهات البلاد المتنوّعة.

ومن بين أبرز ما يُوثّقه الموقع سيرة المناضلة فاطمة محمد الحسن، التي رحلت عن عالمنا العام الماضي، بعد مسيرة طويلة قضتها في الدفاع عن حقوق النساء السودانيات بشكل عام، ونساء ولاية دارفور بصورة خاصّة، حيث أسّست عام 1985 أوّل مساحة مُخصّصة للنساء في «متحف نساء دارفور» بمدينة نيالا، كما وقّفت ضدّ جرائم مليشيات «الجنجويد» في دارفور خلال العقد الأول من الألفية، قبل أن تعيّن وزيرةً للشباب والرياضة عام 2012.

كما تُوثّق «غرفة النساء» سِيَر شخصيّات معاصرة، من بينهنّ: الباحثة في مجال الأنثربولوجيا نعمات رجب، والمُخرجة والطبيبة النفسية تماضر شيخ الدين جبريل، والناشطة النسوية نبا صلاح، والروائيات ريم جعفر وصافية الحلو ومها أيوب، والمغنية شادن الحسن، التي قُتلت في أم درمان إثر سقوط قذيفة على منزلها خلال الأيام الأولى من الصراع الحالي، بالإضافة إلى نساء يمثّلن رموزاً وطنية في السودان؛ مثل الشريفة مريم المرغنية (1886 - 1952)، ورسّامة الكاريكاتير الرائدة فوزية حسن اليمني الكردفانية (1943 - 2005)، والفنّانة عائشة الفلاتية (رحلت عام 1974). على أمل الخلاص من الحرب الدائرة، تتأمل خريطة الأسماء الواردة في «متحف صون تراث السودان الحيّ»، فتقف على تاريخ وأحوال البلاد من خلال سِيَر وإنجازات النساء، حيث واجهت كلّ امرأة من هؤلاء سُلطات وظروفاً سياسية واجتماعية لم تكن أقلّ ممّا تواجهه السودانيات والسودانيّون اليوم.

يُبرز إسهامات المرأة السودانية في الثقافة والتعليم والطبّ والقانون

مُعلّمة في إحدى مدارس الولاية الشمالية بالسودان، 27 أيار/ مايو 2024 (Getty)

فعاليات

ابتداء من 26 حزيران/ يونيو الجاري، تعرض منصّة «افلامنا» شريطاً بعنوان **لوبيا حمراء** (2013)، للمُخرجة الجزائرية **ناريمان ماري**. يعود الشريط إلى نهايات الفترة الاستعمارية في الجزائر، من خلال قصّة مجموعة من الأطفال الذين يتسلّلون لأخذ الطعام من الجيش الفرنسي ويحرّرون أسير حرب.

في «البيت العربي» بمدريد يتواصل، حتى الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر المقبل، معرض فوتوغرافي جماعي بعنوان **مناظر الشمس العابرة**. يُضيء المعرض تجارب ثمانية مصوّرين عرب؛ هُم: المصري **روجيه أنيس**، والمغربيان **محمد كيليطو** و**أيمان جميل**، والسودانيان **صالح بشير** و**إبتي نباغ** (الصورة)، واليمنية **يمنى العرشي**، والأردنية **تانيا حبجوقة**، والسوري **عبد الله الخطيب**.

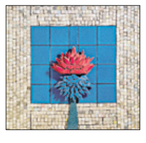

حتى نهاية الشهر الجاري، يستمرّ في «متحف الفنون الجميلة» بالإسكندرية معرضٌ استعادي للفنّان المصري **عبد السلام عيد** (1943)، افتتح السبت الماضي. تنوّع الأعمال المعروضة بين الرسم والكولاج والنحت والجداريات، وجرى اختيارها من مراحل مختلفة من تجربة الفنّان التي انطلقت في نهاية الستينيات.

يتواصل في «متحف الفنّ الإسلامي» بالدوحة، حتى السادس من تمّوز/ يوليو المُقبل، معرض **حرير العنكبوت الذهبي**. يسرد المعرض تاريخ حرير العنكبوت، ويوثّق أسماء الأشخاص الذين عملوا على تطويع هذا النوع من الحرير منذ أن قدّم العالم الفرنسي فرانسوا كزافييه بون أوّل منسوجات من هذه المادّة عام 1709.